الكتابة والبدء...

الكتابة رزق...

رُزِق التصنيف...

عبارة تتردَّد كثيرًا في كتابات المؤرِّخين في وسم شخصٍ ممَّن برع بالتصنيف، وسارت كتبه في الآفاق، فقد قيلت هذه الكلمة على سبيل المثل في حق ابن فارس، والمجاشعي، والجوهري[1].

وهي تشير إلى أن التصنيف والتأليف (رِزق) من الله ﷻ يهبه لمن يشاء، وليس كلّ من خطَّ سوداء في بيضاء أضحى من أصحاب المصنفات؛ فالتصنيف لا يكتمل إلا بالقبول له، فإذا لم يكن له قبول فالكتابة لم تكتمل بعد.

قبل الإتقان وبعده (توفيق الله) ﷻ، الذي لا يُنال إلا بالإخلاص له وسؤاله التوفيق والتسديد... وهذا (سر) ليس بيد الكاتب؛ وهذا تجده كثيرًا في الكتب؛ فقد

---

(١) انظر: نزهة الألباء (ص٢٧٩)، إنباه الرواة (١٦١/٢)، معجم الأدباء (٦٥٨/٢)، الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص٢٧٦).

تـرى الكتـاب المُجَوَّد لا ينال حظوة وقبـولًا كما نال الكتاب الأقـل منه جودة؛ فالكتب كالرّجال شهرة وذيوعًا وقبولًا ورفضًا.

وحين يقدِّم الكاتب (الاستخارة) قبل الكتابة، يكون متعلقًا بالله من أوّل سانحة خطرت له، وحريٌّ أن يعينه الله.

قـال الإمـام **أبـو جعفر الطّبـريّ**: «استخـرت الله تعالـى في عمل كتاب التفسير، وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين، قبل أن أعمله، فأعانني»[١].

وقـال الإمـام **ابن خزيمـة**: «كنـت إذا أردت أن أصنف الشّـيء أدخل في الصّلاة مستخيرًا حتى يفتح لي، ثم أبتدئ التّصنيف»[٢].

وملازمـة (الدُّعـاء)، والإكثار مـن (العبادة)

يتطلـب بهما الكاتـب التّوفيق والنجـاح، فكتاب (الجمل) للزَّجاجـيّ قال عنه القفطي: مبارك؛ ما اشتغل به أحدٌ إلا انتفـع؛ الزّجاجيّ -رحمه الله- صنف الجمل بمكة حماها الله، وكان إذا فرغ من بابٍ طاف أسبوعًا، ودعا الله تعالى أن يغفر له، وأن ينفع به قارئه، فلهذا انتفع به الطّلبة[٣].

---

(١) معجم الأدباء (٦/٢٤٥٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/٣٦٩).

(٣) إنباه الرواة (٢/١٦١).

وهذا الجرميّ النحوي كلما صنف بابًا من كتابه صلّى ركعتين بالمقام، ودعا بأن يُنتفع به، ويبارك فيه. قال أبو علي الفارسي: «قلّ من اشتغل بمختصر الجرمي إلا صارت له بالنحو صناعة»[١].

الشّيخ أبو إسحاق الشّيرازي لا يذكر في (المهذب) مسألة إلا بعد أن يصلي ركعتين، ويستخير الله تعالى فيها، كما فعل البخاريّ في الصّحيح، وهو كتاب مبارك[٢].

قال أبو قاسم الشّاطبيّ صاحب الشّاطبية: «لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا ونفعه الله ﷻ بها؛ لأني نظمتها لله تعالى»[٣].

التصنيف (رزق) من الله، ابتداءً بالفكرة، وانتهاء بآخر حرف يخطه، فليتطلب رزق الله وتوفيقَه.

ومن أجل هذا عزف كثير من العلماء عن التأليف مع الأهلية التّامة؛ خوف الشّهرة[٥].

والإخلاص في التأليف (عزيز)، وهذا الشّيخ عبد السّلام الحسيني «اعتذر عن عدم الإكثار من التصانيف والتصدي لها: بأنه ليس من عُدّة الموت؛ لعدم الإخلاص فيه»[٤].

وفي ترجمة الإمام الماوردي صاحب المؤلفات المشهورة «قيل: إنه لم يُظهر شيئًا من تصانيفه في حياته، وجمعها في موضع، فلما دنت وفاته، قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة، فإذا

---

(١) نزهة الألباء (ص١٢٧).

(٢) انظر: إنباه الرواة (٢/٢٨٨)، الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص٢٤٩).

(٣) إنباه الرواة (٤/١٥٥).

(٤) الضوء اللامع (٤/٢٠٣).

(٥) انظر: كتاب الحكمة العربية (ص٤٠٢).

عاينت الموت، ووقعت في النزع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضت عليها وعصرتها، فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فاعمد إلى الكتب، وألقها في دجلة، وإن بسطت يدي، فاعلم أنها قبلت. قال الرّجل: فلما احتضر، وضعت يدي في يده، فبسطها»[1].

وقال ابن عَيْشون في كلام طويل عن محركات التأليف: «أمّا تواليفي فأكثرها، أو كلها غير متممة في مبيضات... وهذه الأعمال لا ينشط إليها إلا المحركات التي هي مفقودة عندي.

أحدها: طلبة مجتمعون متعطشون إلى ما عندي، متشوفون غاية التشوف، وأين هذه بالمَرِيَّة (وهي مدينة بالأندلس).

الثاني: طلب رياسة على هذا، متى يرأس أحد بهذا اليوم؟ وعلى تقدير أن يَرأس به - وهو محال في عادة هذا الوقت - فالتشوف لهذه الرياسة مفقود عندي.

الثالث: سلطان يملأ يد من يظهر مثل هذا، على يده غبطة، وما تم هذا.

الرابع: نية خالصة لوجه الله تعالى في الإفادة، وهذا أيضًا مفقود عندي، ولا بد من الإنصاف.

الخامس: قصد بقاء الذكر، وهذا خيال ضعيف بعيد عني. السادس: الشفقة على شيء ابتدئ، وسعي في تحصيل مباديه: أن يضيع، على قطع ما سوى هذا الإشفاق، وهذا السادس، هو الذي في نفسي منه شيء...»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦٦/١٨).

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة (١٥٠/٢)، بواسطة كتاب الحكمة العربية (ص٤٢٨).

ابتكار...

لا يولد الشَّخص ومعه (قلم) يتدفَّق كلمات،أو (يدٌ) تصفِّف الجمل، وتصنع الحروف.

إنما (العادة) -التي هي طبيعة ثانية للإنسان[١]- تعمل على تشكيل شخصية الكاتب، وتجعل من الصُّعوبة الانفكاك عن الكتابة أو هجرها.

لا ريب أن (الموهبة) أو (الطَّبع) -بحسب تعبير المتقدمين- تؤثر في اكتساب الكتابة. قال ابن الأثير: «مِلاك هذا كلِّه الطَّبع؛ فإنه إذا لم يكن ثمَّ طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئًا»[٢]، ولكن الطبع - كما قال ابن حزم- لا ينفع مع عدم التوسع في العلوم[٣].

---

(١) كما يقول أبقراط. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص٤٩).

(٢) المثل السائر (١/٣٨). وانظر: رسالة في علم الكتابة لأبي حيان (ص١٠).

(٣) رسائل ابن حزم (٤/٣٥٣).

كل كاتب (ابتكار) واختراع

يصبح المبتكر كاتبًا عظيمًا يقرؤه النَّاس جميعًا، أو يصبح عظيمًا، لكنه لا يحظى بتقدير كبير بين معاصريه، أو يصبح كاتبًا رديئًا، لا أثر له ولا وجود.

من المهم أن يتحقق الابتكار قبل أن (يحدث) أي من هذه الأمور، التي هي مجرد نتيجة، ولا يكون الابتكار دفعةً واحدةً، وإنما دفعات وعلى فترات، ولا ينتهي أبدًا.

فالأمر يتعلق بـ (صنع) الكاتب، لا بصنع عمل كتابي معين، فالكتاب يصنع وحده من خلال ابتكار الكاتب المُعَد لذلك[١].

إن (الموهبة) أو (الطَّبع) قضية مبهمة محاطة بعدم اليقين، تصاحبها اعتقادات في القديم والحديث تعطيها هالة وقداسة، وأنها نوع اصطفاء واختيار، و(إلهام) ينزل على الكاتب بغتة، وأن الكلمة -في تعبير أحدهم- كحربة البرونز في داخلي، إذا لم أُفرج عنها مزَّقت لحمي[٢].

(الموهبة) ما هي إلا استعداد فطري ذو أصول غامضة ومتنوعة تدفع إلى الكتابة دفعًا، فهي دافع وحافز على العمل، وأحيانًا هذه (الموهبة) لا تظهر إلا عبر سياق طويل، وسنوات من الانضباط والمثابرة، فتظهر حينئذ بعد جهد وزمن طويل.

لا شك أن الذين ولدوا ولديهم (الموهبة)، أو من يتملك (دافعًا) أو (حافزًا) للكتابة من صغره، هم الأفضل من الناحية (النظرية)، لكن لا شك أيضًا أن

---

(١) انظر: الكاتب والآخر لكارلوس ليسكانو (ص٥٠، ص٩٠)، في الثناء على ما يبقى (ص٥٦).

(٢) والكلمات تعرف الغضب لقباني (ص١٨). وانظر: اعترافات روائي ناشئ لأمبرتو (ص٢٣).

(الإصرار) والاجتهاد في الكتابة و(التدريب) و(التصميم) على توجيه الحياة الخاصَّة في خدمة المشروع الكتابي، هي الطريقة الوحيدة المحتملة و(العملية) للبدء في تكوين شخصية الكاتب وصقلها، وكلما كان هذا الوعي مبكرًا كانت الثمرة الكتابية أجدى وأسرع، ودون الإصرار فـ(الموهبة) وحدها لا تصنع شيئًا؛ فالكتابة عملية تحفزها (حالة ذهنية) معينة، تلم بالكاتب وتدفعه إلى الإمساك القلم، ولذا تجد من واتته الموهبة متأخرًا، وقد قضى شطرًا من عمره[1].

قال نجيب محفوظ: «إذا وصلت إلى مرحلة التنفيذ فإني أعرف أن هناك عملًا يجب أن ينجز، ولن ينجز إلا بالإرادة والصّبر، فلا أعرف دلال الإلهام»[2].

ويتم هذا التوجيه من خلال طرق عدة تعمل على تكوين (عادة) الكتابة وصقلها، وقبل هذا لا بد أن يكون الشّعور بكونه (كاتبًا) قد ألمَّ به، وأخذ بمسارب نفسه -وإن لم يكتب شيئًا مذكورًا- فيكون هذا له أثر بتحول الادعاء بعد زمن إلى طبيعة وعادة.

وأهم هذه الطُّرق

ممارسة الكتابة

(ممارسة) الكتابة دون كلل أو ملل، فالكتابة تتولد من الكتابة، فيعمد على معالجة ما يقرِّره من المعاني بما يناسبها من اللفظ، وما يناسبها من غرض الكلام ومقامه،

(١) انظر: مقتطفات (ص٩٤)، اسمها تجربة (ص٢٢٨)، الكاتب والآخر (ص٥١)، رسائل إلى روائي شاب (ص٧، ص٩).
(٢) أتحدث إليكم (ص٤٩).

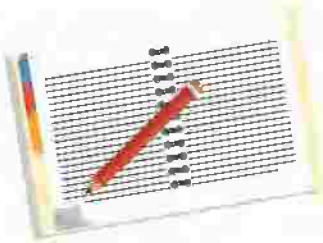

فالسِّباحة لا تُتعلَّم على اليابسة، وقيادة المركبة لا تُتعلَّم بالكلام، وإلا كانت معرفة نظرية لا قيمة لها، فكذلك الكتابة تُتعلَّم من خلال التمرين والتدريب؛ فيصيب ويخطئ ويقوم ويعثر؛ حتى تتكوَّن لديه ذائقة كتابية جيدة، وهذا أحد (أسرار) الكتابة[١]، وهذا الذي يميز بين الكتابة الرَّديئة التي لم تنل حظها من التدريب الصَّحيح، وبين الكتابة الجيدة التي صقلها التدريب والتجربة القويمة... قال ابن الأثير: «الدُّربة والإدمان أجدى عليك نفعًا، وأهدى بصرًا وسمعًا، وهما يُريانك الخبر عيانًا، ويجعلان عسرك من القول إمكانًا»[٢]، وقال الجاحظ: «يقال: إنَّهم لم يَرَوْا خطيبًا قطّ بلديًّا إلّا وهو في أوّل تكلّفه لتلك المقامات، كان مُستَثْقَلاً مستصلَفًا أيّامَ رياضته كلِّها، إلى أن يتوقَّح وتستجيبَ له المعاني، ويتمكّنَ من الألفاظ»[٣].

وقال ماريو بارغاس: «جميع الرّوائيين الكبار والرَّائعين كانوا في أول أمرهم مخربشين متمرّنين، وراحت موهبتهم تتشكّل استنادًا إلى المثابرة والاقتناع»[٤].

وقال أرسكين كالدويل: «كتبت عشرات القصص خلال السَّنة الفائتة، وشعرت بأن مستواها الفني يتحسن باطّراد»[٥].

---

(١) انظر: اسمها تجربة (ص٢٢١، و٢٢٥)، تقنيات الكتابة (ص٧١).

(٢) المثل السائر (١/ ٣٥).

(٣) البيان والتبيين (١/ ١١٢).

(٤) رسائل إلى روائي شاب (ص١٥).

(٥) اسمها تجربة (ص٥٣).

وقد لاحظ الرَّافعي تطور كتابة الشّيخ محمّد عبده عبر الزمن، فقال: «تناولت الكتاب الذي جُمعت فيه آثار الشّيخ محمّد عبده وهو عندي منذ طُبع، ولكني لم أقرأه، ثم أخذت أتصفحه من أوله، فرأيت كتابة الشّيخ أيّام بدأ يكتب وهي لا تستحق أن تقرأ، ولا تساوي شيئًا... وبعد سنة واحدة رأيت للشّيخ آثارًا لا بأس بها، ولم تكد تمضي سنتان حتى تدفق الرّجل، ثم استفاض بعد سنوات، ثم ظهر الشّيخ محمّد عبده كما عُرف بعد ثماني سنين»[١].

يستطيع المتدرب أن ينتهج أساليب عدة في التمرين والممارسة:

فمن ذلك (المحاكاة) في الكتابة، فالكاتب الجديد إنما ينشأ أولًا عن طريق التأثر والتقليد لمن سبقه، حتى يستطيع بعد ذلك أن يصل إلى الأصالة الكاملة، ويقف على قدميه، فيتقمَّص طريقة أحد الكُتَّاب، ويسلك سبيله في التعبير والأسلوب، فإذا تمكن من ذلك شقَّ له طريقةً مبتكرة في الكتابة يُعرف بها، ولا يقتصر في محاكاته تلك على أسلوب واحد، فلا يرتسم في ذهنه إلا ذلك الأسلوب، وإنما يختار ما يناسب الكلام والحال. قال ابن الأثير: «أن يتصفَّح الكاتب كتابة المتقدمين، ويطَّلع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني، ثم يحذو حذوهم»[٢].

ويمكن أيضًا إقامة مقالات وقصص على (أطر) و(قوالب) استخدمها كتّاب آخرون، ومع المران الدائم سوف يتمكن من ابتداع هياكل جديدة من ابتكاره[٣].

---

(١) رسائل الرافعي (ص٦٢).

(٢) المثل السائر (١/١٠٠). وانظر: الإنشاء لابن عاشور (ص١٢)، أتحدث إليكم (ص١٣٧)، الكاتب وعالمه لشارلس مورجان (ص٢٣٣)، رحلة جبلية رحلة صعبة (ص٨١).

(٣) انظر: تقنيات الكتابة (ص٩٧).

أرباب الأدب في فترة زمنهم الأوَّل، تأثروا في شدوهم بأدباء وقتهم، وكان هذا عارضًا لم يستمر طويلًا، فهذا الأديب علي الطنطاوي يقول: «أنا لا أنكر أني تأثرت حينًا بالمنفلوطي، وحينًا بالرَّافعي، وحينًا بالمازني، وحينًا بجبران»[١].

وينبغي ألا يستمرَّ هذا الاحتذاء طويلًا، بل يقتصر على البدايات، وكلما طال به التقليد والمحاكاة زمنًا، فهذا يجعله يستطيب هذا القدد، ويسير على هذا المسلك.

قال المنفلوطي: «لا أحب لأحد الشَّادين في الأدب أن يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكُتَّاب غيري، وليعلموا إن كانوا يعتقدون لي شيئًا من الفضل في هذا الأمر، أني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرَّسائل التي يعلمونها بهذا الأسلوب، إلا لأني استطعت أن أتفلَّت من قيود التمثُّل والاحتذاء»[٢].

وقال الربيعي: «أعرف كُتَّابًا كثيرين انتهوا إلى لا شيء؛ لأنهم ساروا على دروب الآخرين»[٣].

وثم طريقة أخرى نافعة في الارتياض والتمرن، ذكرها المتقدمون من علمائنا، ويكون هذا ابتداءً بقراءة قطعة أدبية مرارًا، وتدبرها وتقليب تراكيبها، ثم حذف منها عبارة أو كلمة ووضع من عنده ما يسدّ سدها، ثم بعد ذا يترقى

(١) ذكريات الطنطاوي (٢٣٧/٣). وانظر: قصص من التاريخ (ص٧ الحاشية). وفدوى طوقان كما في رحلة جبلية رحلة صعبة (ص٧٩) تأثرت بأسلوب محمد حسن الزيات في فترة زمنية.

(٢) النظرات (٣٩/١).

(٣) الخروج من بيت الطاعة (ص١٦٣).

درجـة أخرى، فيعمد إلى (حلّ) الشِّعر و(عقد) النـثر، فيأخذ رسالة من الرَّسائل، أو قصيـدة من الشِّعر، ويقف علـى معانيها، ويتدبرها، وما فيها من إبداع، ثم يكلف نفسـه عمـل مثلها مما هـو في معناها، وهي درجـات متعددة؛ فأقلهـا أن يكون ذلك بمثـل معانيها وألفاظها دون زيادة، وأجودها أن يزيـد عليها في المعاني والألفاظ مع المحافظـة على فكرتهـا، ويمكنه الابتداء بالأسهـل تناولًا، وهو محاولـة التعبير عن الحوادث والصِّفات، ومظاهر المخلوقات، ثم يرتقي إلى خلجات النفس ودواخلها[١].

ومن نصائح الرَّافعي لأحد تلاميذه: «اجعل لك كل يوم درسًا أو درسين على هـذا النحو؛ فتقرأ أولًا في كتاب بليغ نحو نصف ساعة، ثم تختار قطعة منه فتقرؤها حتى تقتلها قراءة، ثم تأخذ في معارضتها على الوجه الذي تقدم -تغيير العبارة أولًا ثم معارضة القطعة كلها ثانيًا- واقطع سائر اليوم في القراءة والمراجعة»[٢].

كثرة القراءة:

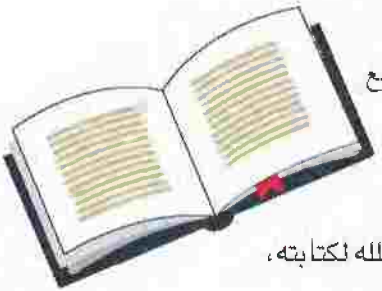

(القـراءة) هـي قـوت الكتابـة، وتقـع في المركـز الأول للنشـاط الإبداعـي للكاتب، وهي وسيلة لاكتساب الكتابة، والتآلف مع الكتابة القويّة والاندمـاج معها، ومعرفة الضّعيف والحـذر من تسلله لكتابته، وتقويم تجربته الخاصّة بإزاء تجارب الآخرين.

---

(١) انظر: المثل السائر (١/١٠١، ١٠٣، ١٠٨)، الإنشاء لابن عاشور (ص١٥)، رسائل الرافعي (ص٤١).

(٢) رسائل الرافعي (ص٦٢).

قال العقاد: «ربما كانت سهولة الكتابة عندي نتيجة مستفادة من سهولة القراءة»[١].

وقال كاتب: «يجب أن تقرأ بقدر ما تستطيع، تلك هي أفضل طريقة لتتعلم كيف تكتب»[٢].

(القراءة) الموجّهة لاكتساب عادة الكتابة تستثمر من جهات متعددة، من ذلك:

(مطالعة) المقولات العلميّة والنثريّة، والمقطوعات الشّعريّة، وإدامة النظر فيها، وحفظ ما يمكن منها؛ لكي تصبح مخزنًا له، يلجأ إليه حال الحاجة؛ فإن مطالعة كلام البلغاء والنسج على منوالهم، وتتبع أخبارهم، وسبر أذواقهم في انتقاء الألفاظ وابتكار المعاني، يحصل به القارئ ما لم يحصل من دراسة قواعد الفصاحة والبلاغة[٣]، «ويطُول الاختلاف إلى العلماء، ومدارَسة كُتُب الحكماء، يَجُودُ لفظُه ويحسُن أدبُه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلُّم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخيُّر»[٤].

(١) حياة قلم (ص٣٩).

(٢) كيف تكتب؟ (ص٢٤٢).

(٣) انظر: الإنشاء لابن عاشور (ص٤٣).

(٤) البيان والتبيين (٨٦/١).

إلا أن هـذا مشروط بنسيان ما حفظ في أثناء الكتابة واختفاء تلك الألفاظ والقوالب، وإن كانت آثارها باقية في ألفاظه ومعانيه التي ينشئُها من نفسه.

قـال خالد القسري: «حفّظني أبي ألف خطبة، ثم قال لي: تناسَها، فتناسيتها، فلـم أرد بعـد ذلك شيئًا من الكلام إلا سَهُل عليّ»[١]، والمنفلوطي لم يكتب إلا بعد أن حفـظ كثيرًا من عبارات كتاب (الأغـاني) وأدمن مطالعته[٢]، وحفظ الرَّافعي كثيرًا من كتاب (نهج البلاغة)، وقال الزركلي عن المازني: «كان جلدًا على المطالعة، وذكر لي أنه حفظ في صباه (الكامل) للمبرد غيبًا، وكان ذلك سرَّ الغنى في لغته»[٣].

(تقييد) الكلمات البليغة، والجمل البديعة، بقلم البصير المنتقي للمختارات، ومراجعة المكتوب بعد الفينة والأخرى، ولما ذكر أبو حيان ما يلزم الكاتب العناية به قال: «جمع بدد الكلام، ثم الصَّبر على دراسة محاسنه، ثم الرِّياضة بتأليف ما شاكل كثيرًا منه، أو وقع قريبًا إليه»[٤].

وفي أثنـاء القـراءة سيقف على كلمات جميلة المبنى، سهلـة الأداء، ذات إيحاء ونغم، تجـري على ألسن الكُتَّاب، ولكل كاتب معجمه الخاصـ به، أو كلمات يختارها

(١) عيار الشعر (ص١٥)، البصائر والذخائر (٩٧/٧).
(٢) كما ذكر ذلك الرَّافعي في رسائله لأبي رية (ص٢١٩).
(٣) الأعلام (٧٢/١).
(٤) البصائر والذخائر (١٠/٣).

دون غيرهـا، يجعلها في تضاعيف كلامه، ومن تلك الكلمات: (تحفل)، (الطَّريف)، (التليد)، (يَرْسُف)، فهذه كلمات معبرة ينبغي عقد اليد عليها.

وقد يجد بعض البغية في الكتب المؤلفة في الألفاظ، ومن أسبقها كتاب (الألفاظ الكتابيّـة) للهمـذاني الذي قال فيه الصّاحب بن عباد: «لـو أدركته لأمرت بقطع يده ولسانه؛ لأنه جمع شذور العربية الجزلة المعروفة في أوراق يسيرة، فأضاعها في أفواه صبيـان المكاتب، ورفع عن المتأدبـين تعب الدّرس والحفظ والمطالعـة»[1]، وكان هذا الكتاب معتمدَ بعض الكتبة المعاصرين[2].

(١) الوافي بالوفيات (٦/٩٠).

(٢) انظر: كيف حملت القلم (ص٤٨).